عصر التدوين و التأليف

عرف العرب منذ العصر الجاهلي الكتابة و التدوين ، و بخاصة في شمال الجزيرة العربية و جنوبها ، حيث توجد الأحجار و الصخور التي كانت تشكل المادة الأساسية للكتابة. و كان التدوين آنذاك يقتصر على مقتضيات الحياة الاجتماعية الهامة ، مثل كتابة الصكوك و العهود والمواثيق ، أما الأعمال الأدبية فلم تكن تدون إلا نادرا ، لأن الشعر ازدهر في البادية التي تفشت فيها الأمية إلا ما ندر ، لذا كان اعتمادها الأساسي على الذاكرة و الرواية الشفوية في حفظ الشعر و المأثور الأدبي .

و قد كانت الكتابة عارية آنذاك من النقط ، خالية من الشكل شأنها في ذلك شأن الكتابة الأم النبطية التي اشتقت منها ، بينما اقتصرت معارف العرب قبل الإسلام بشكل عام على الممارسة ، و الخبرة الشخصية ، فكان لهم شيء من الأنساب و الفراسة و الطب . أما معارفهم الأساسية فقد تجلت في اللغة و الشعر و القصص و الأمثال التي أبدعوا فيها أيما إبداع ، و عرفوا بها في أسواقهم التجارية ، و أشهرها سوق عكاظ و هو سوق للتجارة و إلقاء الشعر.

و تعد كتابة القرآن الكريم فاتحة عهد التدوين عند العرب ، حيث جرى تدوينه تفاريق في أول الأمر على يد مجموعة من الكتاب أشهرهم " زيد بن ثابت ، على بن أبي طالب ، طلحة بن الزبير ، معاد بن جبل ، سعد بن أبي وقاص، عثمان بن عفان ، و معاوية بن أبي سفيان " و بهذا يكون الرسول الكريم قد دشن حركة التدوين الأولى بنفسه ، عندما جمع المؤمنين الأوائل و حثهم على طلب العلم، ثم حملهم مسؤولية نشره في حياته و بعد وفاته .

و عندما قامت حروب الردة و بدأ بعض حفظة القرآن يشتشهدون فيها ، خشي عمر بن الخطاب من خطورة ذلك ، فطلب من الخليفة أبي بكر الصديق أن يجمع القرآن ، و أقنعه بضرورة جمعه و استكمال تدوينه ، فكلف الخليفة الأول زيد بن ثابت بجمع القرآن من الرقاع(نوع من القماش) و من صدور الحفاظ ، و تدوينه على قطع من الأديم (الجلد الأحمر المدبوغ) ، و حفظت بعد جمعها عند الخليفة أبي بكر ثم عند الخليفة الثاني عمر بن الخطاب . و قد جرى تدوين القرآن الكريم

للمرة الثانية في عهد الخليفة عثمان بن عفان الذي أحضر الصحائف السابقة الذكر من عند حفصة بنت عمر ، و كلف عددا من الصحابة بإعادة تدوينه مرة ثانية بشكل منظم و أصبحت هذه النسخة هي النسخة الأم التي احتفظ بها الخليفة عثمان لنفسه ، و أمر بكتابة خمس نسخ أخرى عنها ، أرسلها إلى كل من المدينة و مكة و البصرة و الكوفة و الشام ، و قد حافظت على شكلها هذا إلى اليوم.

حركة التأليف في اللغة العربية

عني العرب بلغتهم منذ العصر الجاهلي و ازداد هذا الاهتمام مع ظهور الإسلام بعد أن أصبحت لغة القرآن الكريم و الحديث الشريف، و قد اتجه اهتمامهم في بداية الأمر بعد الفتوحات الإسلامية نحو حفظ التراث اللغوي من لغات الشعوب الأخرى التي اعتنقت الإسلام ، و كانت حركة جمع اللغة و تدوينها في بداية الأمر عفوية ، تفتقر إلى التنظيم و الشمول ، ثم بعد ذلك جمعت في كتب أكبر حجم و أكثر تنظيم و شمولا و استيعابا، و بها اتسع حجم التأليف في اللغة العربية ، و تكاملت عناصره مع الزمن بجهود علمائنا الأجلاء و أعمالهم العلمية المستمرة و المتلاحقة.

و قد جمعت ألفاظ اللغة العربية ، و جرى تدوينها و ترتيبها خلال مراحل تاريخية ثلاث تتصل اتصالا وثيقا . حيث اقتصرت المرحلة الأولى على الجمع و التدوين خشية على الألفاظ من الفناء ، فلم تعرف التنظيم و الترتيب. فيما عرفت المرحلة الثانية قدرا من التنظيم و جمعت تلك الألفاظ في رسائل صغيرة تظم الكلمات التي يربطها رابط معين، كجمع الألفاظ التي تشترك بحرف واحد، مثل التي تنتهي بحرف الهمزة لأبي زيد الأنصاري، أو ترتبط برابطة الأضداد، حيث اللفظ الواحد يدل على أمرين متضادين، مثل لفظة (شرى)التي تعني باع و اشترى.أو تتماثل بأوزانها الصرفية ، كجمع الألفاظ التي تأتي على وزن (فعلت و أفعلت) مثل: شربت و أشربت،أو ترتبط بمعنى مشترك مثل كتاب (المطر) لأبي زيد الأنصاري،و كتاب (الإبل) وكتاب (الخيل) و كلاهما للأصمعي.

أما المرحلة الثالثة فهي المرحلة التي تم فيها تأليف المعجمات اللغوية العامة ، الشاملة المنظمة ، حيث اعتمد مؤلفوها على رسائل المرحلتين السابقتين،

فجمعوها في مؤلفات أوسع بعد أن أضافوا إليها ألفاظ كثيرة أخرى ، وتعد هذه المرحلة أطول المراحل الثلاث جميعا ، و أكثرها عطاء حيث حددت حركة تأليف المعجمات منهجها في ترتيب المواد اللغوية للألفاظ على نحو :

الترتيب على مخارج الحروف الصوتية:

أي تبعا لصوت كل حرف و مكان خروجه، بدءا من أقصى الحلق و انتهاءا بالشفتين، و كان الخليل بن أحمد الفراهيدي أول من جمع الألفاظ العربية داخل معجم وفق هذه الطريقة الصوتية، و لكن للحرف الأخير من أصل كل كلمة و ليس تبعا للحرف الأول ، و خص الباب الأول من معجمه لحرف العين و هو أول الحروف خروجا من أقصى الحلق ، و بعده تتالت الحروف الأخرى وفق بقية الحروف ، و كانت تسمية المعجم برمته بكتاب العين نسبة إلى الباب الأول.

و قد اتبع عدد من العلماء الأجلاء منهج الخليل في وضعهم و ترتيبهم المعجمات اللغوية التي ألفوها بعده و أبرزهم (أبو علي القالي)في (الأمالي)و(البارع)، (الأزهري)في مؤلفه (تهذيب اللغة) و يعد من أوثق معجمات اللغة العربية و أكثرها استيعابا ، نظرا لاتساع الثقافة في القرن الرابع الهجري.